

بسم الله الرحمن الرحيم

خلاصة كتاب: الطريق إلى القرآن

تأليف: إبراهيم السكران

مدخل

يتحدثون عمّا يرون من فرق مُبهر في حياتهم، وعن فرقٍ عظيمٍ في فهمهم وصحة نظرهم واستقرار تفكيرهم؛ ببركة هذا القرآن.

حديث بعض الصالحين إذ يبيثون شجواهم بما يجدونه في أنفسهم بعد تلاوة القرآن.
حال النبي ﷺ إذا راجع ودارس القرآن مع جبريل كيف يكون أجود بالخير من الريح المرسلة كما في البخاري ... فكيف بنفوسنا الضعيفة المحتاجة إلى دوام العلاقة مع هذا القرآن.
الله جل وعلا ينوع ويعدد التوجيهات لتعزيز العلاقة مع القرآن.

- فتارةً يحثنا صراحة على التدبر ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]
- وтارةً يحثنا على الإنصات إليه ﴿وَإِذَا قِرَئَ الْقُرْءَانُ فَآسَتَمُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرَحَّمُونَ﴾ [الأعراف: ٤]
- وтارةً يأمرنا بالتنفس في الأداء الصوتي ﴿وَرَتَلَ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمول: ٤]
- يأمرنا بالتهيئة النفسية قبل قراءته بالاستعاذه من الشيطان ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَآسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَنِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]
- يغرس في نفوسنا استبعاده عن القرآن ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي أَتَخْذُلُو هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]
- ينبهنا على فضله، ويسيره للذكر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ﴾ [القمر: ١٧]

١- سطوة القرآن

السطوة الغريبة التي تخضع لها النفوس عند سماعه.

اعتنى عناية باللغة بتتبع قصص وأخبار حديثي العهد بالإسلام.

ما هو أكثر مؤثر يدفع الإنسان الغربي لاعتناق الإسلام؟

سمعوا القرآن وشعروا بشعور غريب استحوذ عليهم ... وهم لا يعرفون اللغة العربية أصلًا!

إنها سطوة القرآن.. والله يقول: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ وَخَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]

فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعمل بالصلاحة ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتني مسجداً بفناء داره وبرز فكان يصلّي فيه ويقرأ القرآن، فيتقصّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بگاً لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين. (رواها البخاري في صحيحه).

ومعنى: يتقصّف: أي يزدحمون ويكتظّون حوله مأخذين بجمال القرآن.
الله - جل وعلا - عرض هذه الظاهرة البشرية أمام القرآن على أنها دليل وحجة.

تأمل معى هذا المشهد المدهش الذي يرويه ربنا جل وعلا عن سطوة القرآن في النفوس: ﴿قُلْ إِنَّمِنْنُوا بِهِ إِنَّمِنْنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتَلَى عَلَيْهِمْ يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمْفُعُولاً * وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا *﴾ [الإسراء: ١٠ - ١١]

استمع إلى انفعال وتأثير قوم آخرين بآيات الوحي، يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّنَ مِنْ ذُرْيَةِ إِادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرْيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُوا سُجَّدًا وَبِكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]

وقوم آخرون في عصر الرسالة ذكر الله خبرهم في معرض المدح والثمين الضمني في صورة أخاذة مبهرة يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيَّ الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّهِيدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]

ليس تأثير القرآن في النفوس والقلوب فقط ... بل - أيضاً - تأثيره الخارجي على الجوارح.

يقول تعالى: ﴿الَّهُ نَرَأَى أَحَسَنَ الْحَدِيثِ كَتَبَاهُ مُتَشَبِّهًا مَّثَانِي تَقْسِعُرٌ مِّنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [ال Zimmerman: ٢٣]

لاحظ كيف يرسم القرآن مراحل التأثير، تتشعر الجلود، ثم تلين، إنها لحظة الصدمة بالآيات التي يعقبها الاستسلام الإيماني، بل والاستعداد المفتوح للانقياد لمضامين الآيات.

ما تصنّعه الآيات القرآنية من ترويض النفوس والقلوب لخالقها ومولاه.

فإن كنت من هؤلاء؛ فاحمد الله يا أخي الكريم على العافية، وتذكر قول الله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [ال Zimmerman: ٢٢]

حين يوفقك ربك فيكون لك حزب يومي من كتاب الله، يجب عليك استشعار منه الله وفضله عليك أن أكرمك بهذه السويعة مع كتاب الله. ولكن إذا التفتت النفس لذاتها بعد العمل الصالح نقص مسيرها إلى الله.

وقد نبهنا الله على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُهُ، مَا زَرَّى مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٌ أَبْدَأَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُرِيَّ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]

وقول الله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهَتِي لَوْلَا أَنْ هَدَنَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]

الإنسان بعد العبادة يحتاج إلى عبادة أخرى وهي الشكر والحمد. ويحتاج لعبادة الاستعانة قبل العبادة، ويحتاج لعبادة الشكر بعد العبادة. وهذه الاستعانة بالله عامة في كل شيء.

السطوة أصل معناها كما يقول ابن فارس: [أصل يدل على القهر والعلو].

وهذا المعنى نظير وصف الله للقرآن بالإزهاق: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَطِلُ إِنَّ الْبَطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]

ونظير وصف الله للقرآن بالدمغ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَطِلِ فَيَدْمَغُهُ، فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصْفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]

اللهم اجعلنا من أهل القرآن، اللهم أحي قلوبنا بكتابك، اللهم اجعلنا ممن إذا استمع للقرآن اقشعر جلده ثم لأن جلده وقلبه لكلامك، اللهم اجعلنا ممن إذا سمع ما أنزل إلى رسولك تفيض عيوننا بالدموع، اللهم اجعلنا ممن إذا تلية عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكياً، اللهم إنا نعوذ بك ونلتجي إلىك ونعتصم بجنابك ألا تجعلنا من القاسية قلوبهم من ذكر الله.

٢- تأمل .. كيف انبهروا !

«صحيح البخاري» (٤ / ١٨٣٩): «عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرٍ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُرِّأً فِي الْمَغْرِبِ بِالْطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: {أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوْقِنُونَ. أَمْ عِنْدَهُمْ خَرَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ}. كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ.»

هذا وهو مشرك، وفي لحظة عداوة تستعر إثر إعياء القتال، وقد جاء يريد تسليمه أسرى الحرب.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَقْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوْا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُّنْدِرِينَ * قَالُوا يَقُولُونَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠ - ٢٩]

وأخبر الله في موضع آخر عما استحوذ على هؤلاء الجن من التعجب فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ آسْتَمَعَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَأَمَّا بِهِ وَلَنْ تُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ٢ - ١]

« صحيح البخاري » (١٩٢٧ / ٤): « عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (اقْرَأْ عَلَيَّ). قَالَ: قُلْتُ: أَقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ ؟ قَالَ: (إِنِّي أَسْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي). قَالَ: فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا }. قَالَ لِي: (كُفَّ، أَوْ أَمْسِكْ). فَرَأَيْتُ عَيْنِي تَدْرِقَانِ . »

لقد اشتكي رسول الله ﷺ من كفار قومه حين وقعوا في صفةٍ بشعةٍ، فواهستاه إن شابهنا هؤلاء الكفار في هذه الصفة التي تذمر منها رسول الله، وجأر بالشكوى إلى الله منها، يقول رسول الله ﷺ في شكاوه: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي أَتَخَذُوا هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]

القضية لن تكلينا الكثير، إنما هي دقائق معدودة من يومنا نجعلها حقاً حسرياً لكتاب الله.

٣- منازل الأشعرية

القرآن إذا خيم سكون الليل يكون عالماً آخر.. ثمة قدر إضافي في جلال القرآن لحظة سكون الليل.

« صحيح البخاري » (١٥٤٧ / ٤): « عَنْ أَبِي مُوسَى: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (إِنِّي لَأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ بِالْقُرْآنِ حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَرَلُوا بِالنَّهَارِ) »

النبي ﷺ كان يسمع القرآن بالنهر قطعاً، فلماذا جذبته قراءة الأشعرية وصار يتلفت إلى منازلهم إذن؟ لا أدرى. لكنني أميل إلى أنها أسرار القرآن بالليل.

« صحيح مسلم » (١٩٣ / ٢): عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: « قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي مُوسَى: لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمَعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحةَ ! لَقَدْ أُوتِيتَ مِرْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاؤَدَ ».

ففي صحيح البخاري عن أسميد بن حضير قال: " بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، فرفعت رأسه إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال رسول الله " وتدري

ما ذاك؟" قال: لا. قال رسول الله: " تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا توارى منهم"

« صحيح البخاري» (٤/١٩٦): «عَنْ أَسِيدِ بْنِ حُضَيْرٍ قَالَ:

بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَاءَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَّتَ فَسَكَّتْ، فَقَرَأَ فَجَاءَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَّتَ وَسَكَّتْ الْفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَاءَتِ الْفَرَسُ، فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا اجْتَرَهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّىٰ مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: (أَقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، أَقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ).

قال: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأِ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلْلَةِ فِيهَا أُمَّالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّىٰ لَا أَرَاهَا، قَالَ: (وَتَدْرِي مَا ذَاكَ). قَالَ: لَا، قَالَ: (تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لِصَوْتِكَ، لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارِي مِنْهُمْ)..»

«سنن النسائي» (٣/٢٥٧): عن الزهربي، قال: أخبرني السائب بن يزيد «أن شريحًا الحضرمي ذكر عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: لا يتوسد القرآن».

ما معنى "لا يتوسد القرآن"؟ المعنى أنه لا ينام بالليل ويترك حزبه من القرآن، لكن البلاغة النبوية العظيمة صوّرت من ينام عن القرآن كأنه اتخذ القرآن وسادة!

والنص له وجهان، إما أن يكون الرسول ﷺ يمدح من لا يتوسد القرآن، أو يذم من يتوسد القرآن، ورجم ابن الجوزي في غريبه والسندي في حاشيته الوجه الأول.

الله تعالى أثني مرة على قوم بذلك، فقال تعالى في وصفهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَبِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَلَوَنَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ الْلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]

الله جل جلاله يثمن منهم هذا الموقف ويخلده في كتابه العظيم.

أخذت مرة أتأمل مثل هذه الأخبار القرآنية النبوية عن جلال القرآن في الليل، وأخذت أسئلة: ما سبب ذلك يا ترى؟ هل هناك تفسير علمي لذلك؟

في أصل التكوين البشري يحتاج الإنسان إلى السكينة بالليل، والوحى الإلهي من أعظم أسباب السكينة، ولذلك فإن المعرض عن القرآن يصاب بالآلام النفسية كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَغْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]

تعليق التابع: الآية لا تعني بالضرورة الآلام النفسية.

٤- مع القلوب الصخرية

دعنا يا أخي ندردش دردشة المحبسين يتشارجون لبعضهم كيف يهربون من معتقلات خطاياهم. ووجدت العلاج الحقيقى الفعال الناجع المذهل في دواء واحد فقط، دواء واحد لا غير، وكلما استعملته رأيت الشفاء في نفسي، وكلما ابتعدت عنه عادت لي أنساقمي، هذا العلاج هو بكل اختصار: تدبّر القرآن.

كل تقصير يقع فيه الإنسان، سواء كان تقصيرًا علميًّا بالتأويل والتحريف للشريعة، أو كان تقصيرًا سلوكيًّا بالرضاخ لدواعي الشهوة، فإنه فرع عن قسوة القلب.

قسوة القلب ناشئة عن البعد عن الوحي، فإذا قسا القلب تجرأ الإنسان على الميل بالشريعة مع هواه، وإذا قسا القلب تهاون الإنسان في الطاعات واستثقلها، وإذا قسا القلب عظمت الدنيا في عين المرء فأقبل عليها وأهمل حمل رسالة الإسلام للناس، وإذا قسا القلب ضعفت الغيرة والحمية لدين الله.

العلاج لما يحيك في هذه الصدور هو مداواتها بتدبر القرآن. بالله عليك تأمل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتُكُم مَوْعِظَةً مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]

في الصدور شهوات تتشوف، وفي الصدور شبّهات تنبح فإذا شفيت الصدور وجدت خفة نفس في الطاعات، وإذا شفيت الصدور انقادت للنصوص بكل سلاسة ونفرت من التأويل والتحريف، وإذا شفيت الصدور تعلقت بالآخرة واستهانت بحطام الدنيا، وإذا شفيت الصدور امتلأت بحمل هم إظهار الهدى ودين الحق على الدين كله.

هل تظن يا أخي أن تحريف معاني الشريعة لا صلة له بقسوة القلب؟! أفلأ تقرأ معي يا أخي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِيهِمْ مِنْ ثَقْهُمْ لَعَنَّهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَّةً يُحَرِّفُونَ الْكِلَمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣]

٥- الشاردون

حالات الانحراف بينها تفاوت كبير، فبعضهم مشكلته "علمية" بسبب رهبة عقول ثقافية كبيرة انهزم أمامها، وبعضهم مشكلته "سلوكية" بسبب ضعفه أمام لذائذ اللهو والتّرفية، فإنما تعترى شبهة تقوده للتّمرُّغ في الشّهوات، وإنما تغلبه شهوة فيتطلّب لها الشّبهات والمخارج والجحيل.

القرآن له سر عجيب في صناعة الإثبات في النفس البشرية: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخَبِّتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٌ الَّذِينَ ءاْمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]

مفتاح الهدایة مقارنة هدی القرآن بسلوکیات التیارات الفکریة.

تغطیة وتبریر التقصیر بحیل التأویل الذي جعله الله سبباً للمسخ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ آعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي الْسَّبَّتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً حَسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]

مجرد المعصیة بالصید في اليوم المحرم لا تستحق المسخ، فقد جرى من بنی إسرائیل ما هو أكثر من ذلك ولم يمسخهم الله، ولكن الاحتيال على النص بالتأویل ضاعف شناعتها عند الله جل وعلا.

تعظیم القرآن لمرجعیة الصحابة في فهم الإسلام، وربطه بهم بتجربة بشریة، کقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءاْمَنُوا بِمِثْلِ مَا ءاْمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ وَهُوَ الْسَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِاِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعْدَ اللَّهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَرُ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبہ: ١٠٠]

الوحي ليس نصاً مفتوحاً، بل هو مرتبط بالاهتداء بتجربة بشریة سابقة، فیأمرنا صریحاً أن نؤمن كما آمن الصحابة، وهذا کله یبین أن الإسلام ليس فكرة مجردة مفتوحة الدلالات یذهب الناس في تفسیرها کل مذهب، بل هناك "نموذج سابق" حاکم للتفسیرات اللاحقة للنص.

بيان القرآن لتفاھة الدنيا، وما في القرآن من بيان الله لحقارة الكافر وانحطاطه حيث جعله القرآن في مرتبة الأنعام والدواب والحمير والكلاب والنجاسة والرجس والجهل واللاعقل والعمى والصمم والبهتان والضلال والحريرة.

ما في القرآن من عنایة شديدة بالتحفظ في العلاقة بين الجنسین.

٦- تطویل الطريق

ادعاء: ضرورة مقاومة وتفنيد الأفكار الضالة الجديدة عبر دراسات فکریة موسعة؛ وذلك من أجل الحفاظ على: سلامۃ التصورات الإسلامية من الاجتیاح العلماني المعاصر، وهذا یعتبر: المبالغة في التعویل على الدراسات الفکریة، لأن: أمر الانحرافات الفکریة المعاصرة أسهل بكثير مما نتصور.

لو نجحنا في تعبئة الشباب المسلم للإقبال على القرآن، وتدبر القرآن، ومدارسة معاني القرآن، لتهافت أمم الشاب المسلم -الباحث عن الحق- كل التحريفات الفكرية المعاصرة ريثما يختتم أول "ختمة تدبر".

قراءة واحدة صادقة لكتاب الله، تصنع في العقل المسلم ما لا تصنعه كل المطولات الفكرية بلغتها الباذخة وخيلائها الاصطلاحي، فهي كفيلة بقلب كل حيل الخطاب الفكري المعاصر رأساً على عقب.

من كان معه إيمان وخوف من الله فسيحمله على الانقياد والانصياع لله سبحانه.

من كانت نفسيته المعرفية سوية، أعني أنها تنظر في "جوهر البرهان" وليس في "شكليات الخطاب" فلن يحتاج إلا لقراءة القرآن بتجرُّد.

قال الإمام ابن تيمية في حادثة مشابهة في كتابه "الرد على المنطقين": [وبعض الناس: يكون الطريق كلما كان أدق وأخفى وأكثر مقدمات وأطول كان أفعى له، لأن نفسه اعتادت النظر الطويل في الأمور الدقيقة، فإذا كان الدليل قليل المقدمات، أو كانت جلية، لم تفرح نفسه به، فإن من الناس من إذا عرف ما يعرفه جمهور الناس وعمومهم، أو ما يمكن غير الأذكياء معرفته، لم يكن عند نفسه قد امتاز عنهم بعلم، فيحب معرفة الأمور الخفية الدقيقة الكثيرة المقدمات]

أعطوني ختمة واحدة بتجرُّد، أعطيكم مسلماً حنيفاً سُنّياً سلفياً.

٧- من مناطق التَّدْبِير

ماذا أتدبر بالضبط في القرآن؟

أعظم وجوه ومفاتيح الانتفاع بالقرآن تدبر ما عرضه القرآن من: حقائق العلم بالله.

وكثيراً من المنتسبين للفكر المعاصر يظن الأهم في القرآن هو التشريعات العملية، وأما باب العلم الإلهي فهو قضية ثانوية، ولا يعرف أن هذا هو المقصود الأجل والأعظم.

قال الإمام ابن تيمية: [إن الخطاب العلمي في القرآن أشرف من الخطاب العملي قدرًا وصفة] (درء التعارض، ٥ / ٣٥٨).

وأننا شخصياً إذا التقى بشخصية غربية متميزة في الفكر أو القانون أو غيرها من العلوم أ jihadنفس مجاهدة على احترام تميزه، لأنني كلما رأيتكم في غاية الجهل بالله سبحانه وتعالى،

امتلأت نفسي إزراءً بهم، ما فائدة أن تعرف تفاصيل جزء معين من العلوم وأنت جاهل بأعظم مطلوب للإنسان.

من يتأمل في حال أئمة السلف، ستحوذ عليه الدهشة من عمق علمهم بالقرآن وما فيه من أسرار المعرفة الإلهية، وشدة استحضار الآيات وربط ما بينها، ليست معرفة آحاد وأفراد الألفاظ فقط، بل معرفة السلف بالقرآن مركبة، فتجدهم يلاحظون منظومة لوازم معاني القرآن، ويستخلصون في تقريراتهم حصيلة توازنات هذه المعاني القرآنية.

ومن وجوه الانتفاع بالقرآن تدبر أخبار الأنبياء التي ساقها القرآن وكررها في مواضع متعددة، فهي "نماذج" يريد القرآن أن يوصل من خلالها رسائل تضمينية، فإن تدبر أخبار الأنبياء، وأخبار الطغاة، وأخبار الصالحين، في القرآن، ومحاولة تفهم وتحليل الرسالة الضمنية فيها؛ من أعظم مفاتيح الانتفاع بالقرآن.

ومن أعظم وجوه الانتفاع بالقرآن أن يضع الإنسان أمامه على طاولة التدبر كل الخطابات الفكرية المعاصرة عن النهضة والحضارة والتقدم والرقى والإصلاح والاستنارة الخ، ويضع كل القضايا التي يرون أنها هي معيار التقدم والرقى، ثم يتدبّر قارئ القرآن أعمال الإيمان التي عرضها القرآن كمعيار للتقدم والرقى.

القلب المعمور بالتقوى يبصر ما لا يبصره من أغطشت عينه النزوات.

الإمام ابن تيمية: [ومن المعلوم أنه في تفاصيل آيات القرآن من العلم والإيمان ما يتفضل الناس فيه تقاضلاً لا ينضبط لنا، والقرآن الذي يقرأه الناس بالليل والنهر يتفضلون في فهمه تقاضلاً عظيماً وقد رفع الله بعض الناس على بعض درجات] (درء التعارض: ٤٢٧ / ٧).

يجب أن يستحضر متذرر القرآن أن جمهور قرارات القرآن وأحكامه على الأعيان والأشياء إنما هي "أمثال"، بمعنى أن القرآن يقدم في الأصل نماذج.

من أعرض عن تدبر القرآن فإن الله قدر عليه أصلاً ذلك الانصراف لأن الله تعالى سبق في علمه أن هذا الإنسان لا خير فيه، ولو كان في هذا المعرض خير لوقفه الله للتدبّر والانتفاع بالقرآن، وقد شرح القرآن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عِلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَا سَمَعُهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعَرِّضُون﴾ [الأنفال: ٢٣]

هذا القرآن ينبوع يتنافس الناس في الارتشاف منه بقدر منازلهم، كما قال الإمام ابن تيمية: [والقرآن مورد يرده الخلق كلهم، وكل ينال منه على مقدار ما قسم الله له] (درء التعارض: ٤٢٧ / ٧).

«صحيح البخاري» (٤/١٦٢٣): «عَنْ أَبِي سَعِيدٍ بْنِ الْمُعَلَّى قَالَ:

كُنْتُ أَصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِنْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي، فَقَالَ: (أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: {إِسْتَحِبُّوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحِبِّيكُمْ}). ثُمَّ قَالَ لِي: (لَأُعْلَمَنَّكُ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ). ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ: (لَأُعْلَمَنَّكُ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةً فِي الْقُرْآنِ). قَالَ: ({الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيْتُهُ).

كم من الوقت منحناه لتدبر هذه السورة العظيمة والتساؤل عن معنى هذا التعظيم الإلهي لها؟ فبالله عليك تأمل في هذه الآيات الثلاث التي ذكر الله تعالى في الحديث القديسي في صحيح مسلم أنها نصف الفاتحة، حين قال: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين).

«صحيح مسلم» (٩/٢): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِ وَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ} قَالَ: مَجَدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوْضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} قَالَ: هَذَا بَيْنِ وَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

فيما يخص موضوع جدل المذاهب الفكرية المعاصرة حول قضية: (ترتيب الأولويات). سألك بالله هل رأيت واحداً منهم يتحدث عن الثناء على الله وتقدير الله وتعظيم الله باعتباره أولوية من أولويات الإصلاح؟

كيف تحيروا في أعظم المطالب، وبعضهم فيه ذكاء واطلاع، ولكن هذه الأمور بابها التوفيق الإلهي.

تقديم المعهود (إياك) على العامل (نعبد) يفيد الحصر، فلا يعبد إلا الله، والعبادة لفظ شامل، فإذا نطقت بهاته الجملة التي لا تتجاوز كلمتين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تهافت أمام ناظريك كل المألهات من دون الله.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي جوهر مشروع الإصلاح، وهي قاعدة النهضة، وهي مختبر الحضارة، وهي معيار التقدم، وهي خطة التنمية.

المطلوب الأكبر وهو (ال العبادة) لا يكون إلا بـ(الاستعانة).

إذا كان الله سبحانه اختار أن يكون دعاء أعظم سورة في القرآن هو "سؤال الهداية" فهذا يعني أن الضلال وشيك خطير مخوف، وإن لم يفرد الله سؤال بهذه الخصوصية، لو كان الضلال أمراً مستبعداً.

في المواضع العظيمة، لا يختار من الدعاء إلا أعظمها، وأعظم الدعاء ما خاف الإنسان من ضده. دل هذا على أننا نسير في حقل ألغام من الانحرافات، دل هذا على أن هذه الحياة الدنيا محفوفة بكلاليب الباطل تلتقط الناس يمنة ويسرة.

الله تعالى يوضح لنا الصراط بأنه صراط الذين أنعم عليهم، ومن أعظم من يدخل هذا الوصف أصحاب النبي ﷺ.

يقع الصراط المستقيم بين طريقين، طريق المغضوب عليهم، وهم الذين حصلوا العلم وأهملوا العمل، وطريق الضالين، وهم الذين اجتهدوا في العمل بلا علم، وأهل الصراط المستقيم جمعوا العلم والعمل.

٩- دُوَيِ اللَّيَالِ الرَّمَضانِيَّة

المساجد صارت تتفاوت كثيراً في توقيت صلوات التراويح والتهجد بحسب ما يرتاح له أهل كل حي ويتوافقون عليه.

آيات قرآنية كثيرة تشير لخصوصية القرآن في رمضان.

ليس فقط إِنْزَالُ الْقُرْآنِ اخْتَارَ اللَّهُ لَهُ رَمَضَانَ، بل حتَّى (مراجعة القرآن) مع النبِي ﷺ اخْتَارَ اللَّهُ لَهَا رَمَضَانَ!

«صحيح البخاري» (١٩١١ / ٤): «عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَأَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، لِأَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ، كَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلِةِ».

الساعات الرمضانية هي أشرف الأذمان وأليقها بالقرآن.

أبو العباس ابن تيمية رحمه الله يقول: [بل من أجل مقصود التراويح قراءة القرآن فيها، ليس مع المسلمين كلام الله] (الفتاوى ٢٣ / ١٢٢).

الصيام يهذب النفس البشرية فتتهاجم لاستقبال القرآن، وفي أيام الصيام تكون النفس هادئة ساكنة بسبب ترك فضول الطعام، وهذا يعني أن من أعظم ما يعين على تدبر القرآن وفهمه التقلل من

الفضول، مثل فضول الطعام، وفضول الخلطة مع الناس، وفضول النظر، وفضول السماع، وفضول تصفح الإنترنت.

١٠- الحبل الناظم في كتاب الله

كنت أتأمل كيف ابتلى الله العباد بأمور توافق هواهم، وبأمور أخرى تعارضها، فآمن بعض الناس بما يوافق هواه وترك غيره. والمراد من ذلك شيء آخر، شيء آخر يختلف كثيراً عما يتصور كثيرون من تضررت عقولهم بالثقافة الغربية المادية.

المراد عمارة النفوس بتعظيم الله والاستسلام المطلق له.

وكنت أتأمل كيف يذكر الله النسخ في القرآن، ثم يختتم ذلك ببيان دلالة هذه الظاهرة التشريعية، وهي عمارة النفوس بتعظيم القدرة الإلهية.

وكنت أتأمل كيف ذكر الله مسألة من مسائل شروط الصلاة وهي (استقبال القبلة)، ثم تغييرها من بيت المقدس إلى الكعبة، وبرغم كونها مسألة فقهية بحتة، إلا أن القرآن ينبهنا أن وظيفة هذه الحادثة التاريخية كلها هي "اختبار" النفوس في مدى تعظيمها واستسلامها لله؟ هذا جوهر القضية!

آيات القصاص تختتم بـ "تقوى الله": ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيْوَةٌ يَأْوِي إِلَّا بِمِنْ لَعْلَكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]

وآيات الصيام تلحق أيضاً بالتقوى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءاْمَنُوا كُتُبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتُبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]

وآيات الوصية تختتم كذلك بالتقوى: ﴿كُتُبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا أَلَوْصِيَّةُ لِلَّوِيلَيْنِ وَالْأَقْرَبَيْنِ بِالْمَعْرُوفِ حَقًا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]

وكنت أتأمل كيف ذكر الله حالة "الخوف" من الأعداء ونحوها، فلم يسقط الصلاة، بل أمر الله بها حتى في تلك الأحوال الصعبة.

القرآن يريد النفس البشرية مشدودة الارتباط بالله جل وعلا في جميع الأحوال، يريد من المسلم أن يكون الله حاضراً في كل سكنة وحركة.

وحتى في المشاعر بين الزوجين إذا سارت الأمور في غير مجاريها فإن القرآن يحرك في النفوس استحضار الغيبيات والأبعاد الإيمانية حيث يقول تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَتَّرَهُوْا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]

بِاللَّهِ عَلَيْكَ تَخْيِيلُ الْمُسْلِمِ وَقَدْ لَبِسَ لَأْمَةَ الْحَرْبِ، وَصَارَ عَلَى خَطِ الْمَوَاجِهَةِ، وَالْعَدُوُ يَتَرَبَّصُ، وَالنُفُوسُ مُضطَرِبةٌ قَلْقَةً، وَالْأَزِيزُ يَمْخُرُ الْأَجْوَاءَ، وَالدَمُ تَحْتَ الْأَرْجُلِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَقُلِ اللَّهُ دَعَوا الصَّلَاةَ حَتَّى تَنْتَهُوا، بَلْ لَمْ يَقُلْ دُعَوْا "صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ"! إِنَّمَا شَرُّهُ كَيْفَ يَصْلُو جَمَاعَةً فِي هَذِهِ الْلَّهَظَاتِ الْعَصِيبَةِ.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلَيَأْخُذُوهُ أَسْلَحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوهُ فَلَيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصْلِلُوا فَلَيُصَلِّلُوا مَعَكَ وَلَيَأْخُذُوهُ حِذْرَهُمْ وَأَسْلَحَتَهُمْ وَدَآلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلَحَتِكُمْ وَأَمْتَنِعْتِكُمْ فَيَمْلِئُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدْيَ مِنْ مَظَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلَحَتِكُمْ وَخُذُوهُ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَ لِلْكُفَّارِ عَذَابًا مُهِينًا * فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا آتَمْأَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ٢ - ١٠٣]

هل تعرف في الدنيا كلها شاهد على حب وتعظيم الله جل وعلا للارتباط بالله واستمرار مناجاته أكثر من ذلك!

بل هل يوجد رجل فيه شيء من الورع وخوف الله يهمل صلاة الجماعة وهو في حال الأمن والرفاهية وعصر وسائل الراحة؟ وهو يرى ربه تعالى يطلب من المقاتلين صلاة الجماعة ويشرح لهم تفاصيل صفتها بدقة، وهم تحت احتمالات القصف والإغارة؟!

هل تستيقظ نفوس افترشت سجاداتها في غرفها ومكاتبها تصلّي "آحاداً" لتنأمل كيف يطلب الله صلاة "الجماعة" بين السيوف والسيارات والدروع والخنادق؟!

الآن انتهى المقاتل من صلاة الجماعة، فيرشده القرآن لاستمرار ذكر الله.

وواصلت الآية الحديث عن انتهاء حالة الخوف، وبدء حالة الاطمئنان، ويتصل الكلام مرة أخرى لربط النفوس بالله.

إنها بوابة استحضار الله وتذكره، يقول الله سبحانه: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]

هكذا بكل وضوح، يقيم المسلمون الصلاة ليذكرون الله جل وعلا.

حتى تعليم الجوارح وكلاب الصيد يجب أن يستحضر المؤمن أنها تعليم مما علم الله، ما أشد كثافة حضور العلاقة بالله في القرآن. ﴿وَمَا عَلِمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلَّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَمْتُمْكُمْ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤]

ذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام إذ أمر قومه بدخول الأرض المقدسة والتي ذكر بعض أهل التفسير أولاً الطور وما حولها.

القرآن يكشف دائرة الضوء على أمر آخر لهم وهو أن يرتبط الفؤاد بالله سبحانه وتعالى وهو يصارع هذه البلاءات، يقول الله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسَكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]

ويقول ربنا في موضع آخر مشابه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَأْدٌ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]

لعلك لمحت معنى آخر، وهو أن الآيتين كليهما لم يتحدثا فقط عن أن كاشف الضر هو الله، بل المدهش أنهاهما وأشارتا كذلك إلى أن من مسك بهذا الضر هو الله سبحانه وأيضاً فصار مبتدأ الأمر ومنتهاه من الله وإلى الله، فماذا بقي في القلب لغير الله!

هذه التغيرات التي تطرأ على الفرد والمجتمع بشكل عام يريد بها الله أن نعود إليه كما يقول الله: ﴿وَبَلَوَّهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]

ومن التعبير الشموليّة التي استعملها القرآن لتربية هذه الحقيقة الكبرى في النفوس قول الله سبحانه في خواتيم سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِلَّهِ أَمْرُّ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]

قد يعرف الكثير من الناس اليوم كيف يصلّي لله، وكيف يحجّ لله، لكن القليل من الناس يدرك كيف يحيا حياته لله، وكيف يموت لله؟ وهذه الآية العظيمة تزكي النفوس بهذا المقام العظيم الذي هو لب القرآن.

وإذا تأمل متذمّر القرآن هذه الآية ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَقِيَ﴾ [الأنفال: ١٧] لوجد فيها إثباتاً ونفيّاً، فأثبتت لرسول الله رميّاً، ونفي عنه رميّاً آخر، فالمحبّث هو الحذف والإلقاء، والمنفي هو الإيصال والتبلیغ.

في قصة الثلاثة الذين خلّفو: ليس العجب فقط أنهم تعلقوا بالله، بل العجب إشارة الآية إلى المبدأ والمنتهى، أعني إشارتها إلى أنه لا نجاة من الله إلا إلى الله! فالله هاهنا هو المخوف، والله نفسه هو الملاذ! هذه هي القلوب التي يحبها الله.

﴿وَعَلَى الْثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحْبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّ لَّا مَلْجَأًا مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]

ليس من الأدب أن تدعوا الله أثناء الأزمة ثم تغفل عن التعلق بالله بعد تحسن الأحوال.

متذمِّر القرآن يجد في سورة الكهف تعريضاً مدهشاً للصحبة الصالحة، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الْدُنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَأَتَبَعَ هَوَنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطاً﴾ [الكهف: ٢٨]

وأخجلاه من زمانٍ صرنا نستحي فيه من حقائق القرآن!

شاهد كيف يشرح موسى وظيفة الاستعانة بأخيه هارون في سورة طه: ﴿وَاجْعَلْ لَيْ وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَرُونَ أَخِي * آشِدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشَرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٦-٢٩]

لو قدَّمَ اليوم بعض الدعاة نصيحة للثوار على الحكومات العربية الفاسدة بأن يكثروا من (ذكر الله) لعدَّ كثير من المستغرين بذلك دروشة وسداقة!

ليس المطلوب فقط تنفيذ أحكام القرآن، بل لابد أن يقوم في القلب معنى آخر يظهر به "ذل العبودية" الله سبحانه وتعالى، وهو طأطأة القلب ورقته فور تلقيه القرآن، يقول الله: ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَا دِلْلَاتٌ إِنَّمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]

وأما الذي رأيته شخصياً فلا أعرف مطلوباً عملياً ردده القرآن بعد التوحيد مثل موضوع (ذكر الله). أما المطلوب الخبري بعد التوحيد فربما كان (المعاد) والله أعلم.

وما أحسن قول أبي العباس ابن تيمية رحمه الله: [والمحض هنا أن الخليلين - محمد وإبراهيم- هما أكمل خاصية الخاصة توحيداً، وكمال توحيدهما بتحقيق إفراد الألوهية، وهو أن لا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلاً] (منهاج السنة: ٥ / ٣٥٥).

اللهم لا تجعل في قلبي وقلوب إخواني شيء لغيرك أصلاً.

إن الدعاة إلى الله الذي يحاولون دوماً توظيف الأحداث للتذكير بالله هؤلاء أعلم الناس بحقائق كتاب الله، وإن أولئك المفتونين الذين يسخرون من ربط الأحداث بالله، ويسمون ذلك (المبالغة في تديين الحياة العامة) تشويهاً لهذا الدور النبيل؛ هؤلاء هم أجهل الناس بدين الله الذي وضحه في كتابه ببيان هو في غاية البيان.

نقل الإمام ابن تيمية: [ولهذا قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله] (الفتاوى: ١٠ / ٣٣).

قال الإمام ابن تيمية: [فإن القلب بيت الإيمان بالله تعالى ومعرفته ومحبته] (الفتاوى: ١٨ / ١٢٢).

وقال الإمام ابن القيم في النونية: [فالقلب بيت الرب جل جلاله، حباً وإخلاصاً مع الإحسان] (النونية بتحقيق العمير: ٣٦٦).

المقصود عمارة القلوب بالأعمال التي يحبها الله سبحانه، وخلوصه من الالتفات والانقياد لغير الله، على طريقة التأله السلفي المهتمي.

فما أقرب الساعة التي سيسألنا الله جميعاً عن تحقيق مراده، وسيكون السؤال حينها على (أساس القرآن) يقول الله: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُتَلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَبِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦]

خاتمة

هذه الجولات السريعة في عظمة كتاب الله، وأسرار التدبر المهيبة.

- قواعد التدبر الأمثل للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني رحمه الله.
- تحذيب القرآن للشيخ د. عبد العزيز الحربي.
- تعليم تدبر القرآن الكريم للدكتور هاشم الأهدل.
- المراحل الثمان لطالب فهم القرآن للدكتور هاشم الأهدل.
- فن التدبر للشيخ د. عصام العويد.

أولاً وقبل كل شيء يجب على الإنسان أن يتضرع إلى الله ويدعوه ويلح عليه أن يجعله من أهل القرآن، وأن يفتح عليه في فهم كتابه، والعمل به، فإن الإنسان لا يفتح عليه في العبودية بمجرد الجهود الشخصية والتخطيط للإنجاز. وكل أبواب الخير من العلم والديانة إنما هي من باب الاستعانة.

ثانياً: يحتاج المسلم إلى وضع حزب يومي للتدبّر.

جعل النبي ﷺ النطاق الزمني لتحذيب القرآن بين (شهر - أسبوع) فلا يكون أكثر من شهر ولا أقل من أسبوع.

«سنن أبي داود» (٥٦ / ٢) ت محى الدين عبد الحميد): «قَالَ أَوْسٌ: سَأَلْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ يُحَرِّبُونَ الْقُرْآنَ، قَالُوا: ثَلَاثٌ، وَخَمْسٌ، وَسَبْعٌ، وَتِسْعٌ، وَإِحْدَى عَشْرَةَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَحِزْبُ الْمُفَصَّلِ وَحْدَهُ»

يقول الإمام ابن تيمية: [فالصحابة إنما كانوا يحزبونه سوًاء تامة، لا يحزبون السورة الواحدة] (الفتاوى: ٤٠ / ١٣).

ومن الرائع ألا يغلب الإنسان على ورده من التدبر مهما كانت الظروف، والورد اليومي من القرآن كما سمعت أحد الصالحين يقول: في اليوم الأول كالجبل وفي الثاني كنصف الجبل وفي الثالث كلا جبل وفي اليوم الرابع مثل الغداء الذي تتألم لفقدته.

ثالثاً: أن يكون الأصل هو التدبر الشخصي، والتفسير مُعين.

والقرآن كما قسمه ابن عباس أربع مراتب [التفسير على أربعة أوجه: تفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله]. ليس كل القرآن يحتاج لتفسير.

فيقرأ الإنسان في المصاحف المهمشة بالتفاصيل

- التفسير الميسر الصادر عن مجمع الملك فهد.
- تفسير ابن سعدي.
- تفسير الجلالين.

الإمام العلامة أضخم مرجعية فقهية سنوية معاصرة ابن عثيمين رحمه الله حين سُئل عن طريقة طلب العلم وأولى العلوم بالعناية والاهتمام قال: [نقول: ابدأ بالتفسير قبل كل شيء، لكن هذا لا يعني ألا تقرأ غيره، لكن ركز أولاً على علم التفسير. وطريقة ذلك: أن تفكّر أنت أولاً في معنى الآية، قبل أن تراجع الكتب، فإذا تقرر عندك شيء فارجع إلى الكتب، وذلك لأجل أن تمرن نفسك على معرفة معاني كتاب الله بنفسك، ثم إن الإنسان قد يفتح الله عليه من المعاني ما لا يجده في كتب التفسير، خصوصاً إذا ترعرع في العلم وبلغ مرتبة فيه فإنه قد يفتح له من خزائن هذا القرآن الكريم ما لم يجده في غيره] (الباب المفتوح، لقاء ٨٦)

رابعاً: من أجمل الأمور أن يضع الإنسان لأهل بيته برنامجاً في التفسير فيقرأون ويتابرون في الاستنباط ثم يراجعون التفسيرات المختصرة، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْنَّ مَا يُتَلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]

فالنبي ﷺ كان يتلو على نسائه القرآن، وهذا له أثر لا يتصوره الكثيرون في تحبيب الأهل في القرآن والإقبال على الاستنباط منه.

هذا القرآن عجيب في تصحيح المفاهيم وتركيبة النظارات والتصورات.

خامساً: لا أعلم درساً شرعياً في كل علوم الإسلام أنسه النبي ﷺ وأصله نظرياً بنفسه إلا تدرس القرآن

«صحيح مسلم» (٧١ / ٨): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسْرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنَانِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنَانِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَّلْتُ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِّيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسْبَهُ.»

ولقد تأملت سيرة الصحابة في سير أعلام النبلاء، وبعض طبقات ابن سعد، وبعض حلية أبي نعيم؛ فهالني والله ما رأيت من إقبالهم وتكتيف جهودهم في القرآن.

ابن تيمية، حين اعتقل المرة الأخيرة في قلعة دمشق وسحبته منه الكتب والأقلام أقبل على القرآن وقال: [قد فتح الله علي في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنوا وندمت على تضييع أكثر أوقاته في غير معاني القرآن]. (العقود الدرية: ٤).

هذا أبو العباس يندم على تضييع أكثر أوقاته في غير معاني القرآن، برغم أنه من أئمة التفسير أصلاً! فماذا نقول نحن المقصرين مع كتاب الله؟!

اللهم اجعلنا من أهل القرآن.

الحمد لله رب العالمين